

إيطاليا الجديدة

بين الانهيار والبحث العاشق

كنا الى عهد قريب نحسب إيطاليا بلاد مجد قديم واطلال كريمة ومشاهد طبيعية رائعة، لا دولة من دول العالم الكبار. ولكننا زرى فيها اليوم امة متحدة الكلمة فتية العزم مسوعة الرأي في مجتمعات الدول حتى لقد وصف احد الكتاب احوال اروبا السيامية ومكانة موصوليني في حسمها او توجيها بنكروم بقول المأثور: « جميع الطرق تعضي الى روما ». ففي الاثنتي عشرة سنة الماضية شهد العالم في إيطاليا بعداً قومياً قد لا يفرقه بحث قومي آخر في التاريخ وان ساواه في عصرنا بحث الامة التركية على ايدي مصطفى كمال. ولا بد لنا في تلخيص قصة هذا البحث من الارتداد الى سنة ١٩١٤ كانت إيطاليا حينئذ امة ملكية دستورية، على رأسها ملك (هو ملكها الحالي فيكتور عمانوئيل الثالث) ولها برلمان ديمقراطي على منال البرلمان البريطاني. ولكن وحدة إيطاليا السياسية كانت قريبة العهد فلم يكن لها في سنة ١٩١٤ تقاليد برماها رجال السياسة او رجال الجيش، وهذا بطبعه افضى الى تقديم المصلحة الخاصة على المصلحة العامة ولذلك كانت حياة إيطاليا العامة قبيل الحرب حياة يشوبها الفساد والارتكاب

فلما نشبت الحرب الكبرى وقعت إيطاليا في مأزق. فقد كانت مرتبطة بالخصم بمعاهدة ولكن ساستها كانوا لا ينوون الانضمام الى الخصم الا اذا تبين لهم ان كفة النصر راجحة في جانبها. حتى اذا كانت كفة النصر راجحة في جانب الخصم فاذا تمجني إيطاليا من ثمار النصر ؟ ان حل ما يمكن أن تتنازل عنه الخصم هو مقاطعة الترتينو. حالة ان دول الحلفاء كانت تمنحها باكثر من ذلك اذا خاضت الحرب في صفوفهم ضد الخصم. وكذلك مضى سياسة إيطاليا يسامون هذا الفريش وذلك مدى شهور. ولكن الرأي العام في إيطاليا كان قد اخذ ينقلب ضد الخصم عدوة إيطاليا التاريخية. وفي اوائل سنة ١٩١٥ طالب احد المحررين في جريدة اشتراكية بالتحوض إيطاليا الحرب ضد الخصم، فطرده هذا المحرر من الحزب الاشتراكي ومن ادارة الجريدة فانشأ جريدة سماها الـ « بوبولو دي إيطاليا » فأحرزت في الحال نجاحاً محمياً عظيماً. وقد كان ذلك المحرر يدعى بينيتو موصوليني

وفي خلال هذا كان رجال الدولة قد اتخذوا قراراً حاسماً. ذلك ان وزير الخارجية البريطانية، ادورد غراي، كان قد وعدم بضم التيرول النمسية وشواطئ دلتايا على البحر الادرياتيكي (ما عدا ميناء فيومي) الى إيطاليا اذا هي خاضت الحرب في صفوف الحلفاء. فقبلت إيطاليا ما عرض عليها فوقعت معاهدة سرية في لندن في شهر ابريل (وتعرف باسم لندن ١٩١٥) وفي مايو شهرت

الحرب على النمسا . وقد ابى بعض الايطاليين بلاه حتماً في الحرب الكبرى واحرز بعضهم شهرة طالية بشجاعتهم واقدامهم . وفي مقدمة هؤلاء الشاعر دانزيو الذي تعلم الطيران وتظم في سلاح الطيران وحلق بطائرته فوق فينا والتي عليها بدلاً من القنابل ، نشرات حث فيها النمسيون على طلب الصلح . ولكن الجيش الايطالي خذل في كبروتو في اكتوبر سنة ١٩١٧ فتقدم الجيش النمسي على اتروراحفاً نحو البندقية ولكن لم تنقبض سمة على ذلك حتى كانت ألمانيا قد عجزت عن المضي في الحرب فتراجع النمسيون واقتفى الايطاليون اترهم ثم اشتبكوا معهم في معركة احرزوا فيها نصراً باهراً فلما اجتمع مؤتمر الصلح في باريس كان ممثل إيطاليا فيه السفير اورلندو فقال ان هذا النصر الباهر الذي احرزه الايطاليون جدير بالكفاة وطلب ان يضاف مرفأ فيومي الى المقاطعات التي قطعت لايطاليا في معاهدة لندن سنة ١٩١٥ . ولكن الرئيس ولسن تعدى له . قال : لتتح إيطاليا التيرول والترنتينو وشاطيء دلتيا حتى مدينة تريستا . اما فيومي فيناه صلافي ويجب ان يمنح ليوغوسلافيا (وكانت تعرف حينئذ باسم دولة الصرب والكروات والسيرفين) ولما تعذر الاتفاق استدعي اورلندو من باريس فخرج من مؤتمر الصلح فانساً

وكان في ايطاليا رجالاً قد ومنسوا العزم على ان ينالوا بالقوة ما عجزت حكومتهم الضعيفة عن نيله بالمفاوضة . وكان في مقدمة هؤلاء جبرائيل دانزيو الشاعر الجندي . كان شعره الملهب واقدامه في خلال الحرب ، قد جملاه الزعيم الطبيعي لجماعة الشبان الايطاليين . ففي سبتمبر سنة ١٩١٩ جمع كل طائفة استطاع ان يلتقي يديه عليها وطار الى فيومي فطرد منها جيش الحلفاء المحتل واعلن فيومي مرفأ ايطالياً وحثه في ذلك حجة الشاعر اذ قال : ان فيومي ايطالية بحق المشابهة بين مشاهد الطبيعة فيها ومشاهد الطبيعة في ايطاليا ! وجعل يلقي خطاباً طارية على طريفة خطباء الرومان والاعريق القدماء . واعلن ان فيومي دويلة ديمقراطية على مثال آيينا ، وجعل يجمع الجماهير كل يوم امام داره فيطل عليهم من الشرفة ويسألمهم : ما هي رغباتكم أيها المرابطون . وكان جنوده شباناً ثملين مجيداً روما القديم ويملمون بانشاء مستقل مجيد على غرار المجد القдах . وكان بين انصاره رجال قد خاضوا غمار الحرب وخرجوا منها أبطالاً تلهبهم النزعة الوطنية فاقدم احدهم — كير Keller — على القاء قنابل من البجر على وزارة جيولتي في روما . وكان هناك ستمين انفصلت عن الاسطول وانضمت الى دانزيو في فيومي وفي مقدمتها السفينة المعروفة باسم « داني » . فطلت فيومي ثلاثة أشهر في تبعة دانزيو وصحبه بلاداً خليقة بالابطال . وفي ليلة عيد الميلاد سنة ١٩١٩ ارسل جيولتي الاسطول الايطالي الى فيومي — وهو يعلم ان الصحف تعطل اربعة أيام — فأخذها عنوة وفر دانزيو واتباعه وانتهت على ذلك مغامرته ولكن لما ذاعت الانباء اقلعت ايطاليا مسارحها وارندت ملابس الحداد ولكن حكومة جيولتي التي كانت على جانب كاف من القوة لطرد دانزيو من فيومي عجزت عن حفظ النظام في طول البلاد وعرضها . ذلك ان ايطاليا كانت متبرمة بنصر حربي لم يحقق لها جميع

رفائها فلا هي فازت بجانب من مستعمرات المانيا ولا بشرائىء دلمانيا بل رأى على الضد من ذلك دولة جديدة كبيرة تنهض على شوائىء الادرناتيكي الشرقية تعرف باسم بوغوسلافيا. وكانت الامة تنتظر عودة الرخاء بعودة السلام فإلها. فاندت الحركة الاشتراكية امتداد النارى الهشيم. وفي يناير سنة ١٩٢٠ اضرب عمال البريد والتلغراف وسكك الحديد. وفي الصيف بدأت مجالس العمال (السوفيت) تحتل المصانع. على ان الجماعة الاشتراكية لم تكن الجماعة الوحيدة التي تقاوم الحكومة بل نشأت جماعة قليلة بدت في افق جيولتي السياسي اولاً كغصية صغيرة لا يزيد عن مساحة الكف. ذلك ان بنيتو موسوليني كان قد انشأ في ميلان حزباً متواثماً مؤلفاً من ١٥٠ عضواً ودعاه «فاشو» والامم مشتق من لفظ لاتيني «فاشيس» ومعناه حزمة العصي حول فأس كان يحملها اتباع الحكام (القنصل في روما) عند سيرهم في شوارع المدينة. فكان هذا الامم رمزاً بديعاً للنج الذي ينوي موسوليني ان يهجه. كان موسوليني قد خاض غمار الحرب الكبرى وجرح في احدى معاركها. وكان يدرك الروح الذي حفز الجنود الايطاليين للاحتفال في ميادينها. فقد كان يهيمهم انشاء دولة ايطالية جديدة تحتل في الحضارة الاوربية مكاناً في فريق الطلبة اكثر مما يهيمهم قبر النسا. وكان يفهم ان شجاعة الافراد واقدامهم، كشجاعة دانزبرو واقدامه، يعجزان عن مقاومة حكمة منظمة. ولذلك كان الامل الوحيد في انشاء ايطاليا الجديدة معلقاً باتحاد الوطنيين حول زعيم قوي وهو ما يمثلته الامة الذي اختاره — عصي فردة محزومة حول فأس

سقطت وزارة جيولتي في ٢٦ يونيو سنة ١٩٢٠ وتلها وزارة بونومي. فاحتلت بذكري الجندي الايطالي المجهول في ٤ نوفمبر سنة ١٩٢١ وبمد يومين اي في ٦ نوفمبر سنة ١٩٢١ عقد الفاشيون مؤتمراً في روما واصبح الحزب الفاشي حزباً سياسياً منظماً. وفي العاشر من الشهر نفسه اعلن الشيوعيون والاشتراكيون اضرباً تاماً احتجاجاً على وجود الفاشيين في روما فتلا ذلك اضطرابات خطيرة قتل فيها خمسة وجرح اضع مئات. وفي اواخر الشهر اقلس بنك الخصم فورجيه اللوم الى الحكومة لعجزها عن منع هذه الكارثة المالية واضطر بونومي ان يستقيل في ٢ فبراير سنة ١٩٢٢ لما هجره بعض مؤيديه وانضموا الى المعارضة

فلما استقالت وزارة بونومي تعذر تعيين خلفه له حتى يعرف اي حزب او اي فريق يفوز بتأييد الفاشيين. وكذلك انتقضت نحو ثلاثة اسابيع قبل ان تألفت وزارة برامة السنيور لويجي فاكتا. وهو رجل عرف بالنزاهة والوطنية ولكنه لم يشتهر بالحزم في الملطات. وادرك موسوليني ان مفتاح الحكم اصبح بيده او كاد، فلبث ينتظر تطور الاحوال وهو يُعدُّ معداته لليوم العصيب. فلما استعجل امر الاضرابات التي اعلنها الشيوعيون والاشتراكيون في مختلف النواحي احتدم النزاع بينهم من جهة وبين الفاشيين من جهة اخرى. فلما اعلن حزب العمال في جميع مرافق ايطاليا في ١٨ مارس سنة ١٩٢٢ — وكانت الحكومة ميالة الى تأييد مطالب العمال الحرة — وقف لهم الفاشيون

بالمسار وقادروا عليهم فهادوا العمل في لراية الى حانته السورية . وفي ٢٥ مايو اطلق اضراب عام في روما وفي يوليو نشر وزير المالية حساب السنة المالية السابقة فإذا فيه عجز عن الخزينة يقدر ٤٥٠٠ مليون ليرا وقال الثريا ان المعجز يبلغ ٦٥٠٠ مليون ليرا . فأصيب الرأي العام بذعر عظيم وتجددت الاضطرابات وقبض الفاشيون على ناصية الحال في مناطق مختلفة ففرقوا جماعات الاشتراكيين والشيوعيين بالقرعة . ولكن الثواب كانوا في شغل عن كل هذا بالمناورات الخبيثة . وفي اوائل اكتوبر ١٩٢٢ أعلن اتحاد العمال اضراباً عاماً في ايطاليا فوقف العمل في معظم المصانع وأضرب عمال السكك الحديدية . ولكن الفاشيين أعلنوا تبعية طامة وتولوا النهوض بالخدمات الضرورية مثل المواصلات ونقل الطعام وأذاعوا بياناً وجهوه الى العمال حشوم فيه ان يعلموا عن اكتافهم نير المشتغلين بالسياسة وأنزلوا الحكومة بانهم يمنحونها ٤٨ ساعة لتثبت كفاءتها في القبض على ناصية الحال فإذا عجزت تولوا هم الامر . قالوا : « وعند انتهاء هذه المدة تكون الفاشية حرة في ان تحل محل الدولة » . ولم تقصر حمة أيام حتى كمن الاضراب قد خاب في تحقيق غرضه وهر نشر التوضي في البلاد . واضطهد الفاشيون في خلال ذلك بالشيوعيين في مدن مختلفة اهمها مدينة ميلان حيث اسقطوا مجلسها البلدي الاشتراكي الشيوعي . وكانت وزارة فاكتا قد عجزت عن معالجة الحال فطلب رئيس الوزراء الى الملك فكتور عمانوئيل اعلان الاحكام العرفية ولكن الملك ادرك ان اعلانها يفضي الى حرب اهلية لان الفاشيين كانوا قد عبأوا صفوفهم وبدأوا انزحف على روما فرفض . وطلب الى موسوليني ان يشارك في الوزارة فأبى فاستقالت وزارة فاكتا ودخل موسوليني روما على رأس الفاشيين لتتخذ أزمة الحكم . وما لبث ان اطلق من شرفة دار الرئاسة عن الجمهور وخطبهم قائلاً : سوف يكون لكم بعد اليوم حكومة لا وزارة . وخطب الملك مرتدياً قبيحة الاسود : عنوا يا مولاي اذا سمعت اليك بهذه الملابس ولكني احمل اليكم « ايطاليا المنتصرة » . وكان ذلك في ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٢٢ .

ولما تولى موسوليني الحكم قبض على ازمته بيد من حديد ، فسار حذراً في البدء لئلا يتولب عليه الاحزاب المعارضة قبل ان ترسخ قدمه ولكن حذره لم يخل من الجرأة لانه في اليوم الاول الذي تقدم فيه الى مجلس النواب خطب فيه قائلاً « الي مرجع الحكم في هل تحتفظون بتقاعدكم شهرين او سنتين » . فكان لكلامه وقع عظيم في قوس النواب فأولاه المجلس تمتة ، واغتبطت الامة بهذا الانقلاب اذ بدا لها ان هنا رجلاً يستطيع ان يتفدها من الشيوعية . فلما اغتيل اثنان وعشرون من الشيوعيين في ديسمبر سنة ١٩٢٢ هنا وكيل وزارة الداخلية المتعاليين وعناصير القضاة على ان موسوليني جسم الخطر الشيوعي ليعتاقم في نظر الامة جهد الفاشيين في اتقادها منه . ولكنه لم يكن رجلاً يكنى بالتشكيل بمخسومه ، بل كان يرمي الى ان يبعث في جسم الامة الهرم شرازة الحياة والنشاط ونظر بعين بصيرة وخيال الى يوم ينشوء فيه ايطاليا الجديدة على

مثال جديد بين الامم ، وينبني عليها من اسباب القوة المادية والعنوية ما يحلها في مجامع الدول المحل اللامق بمجدها القديم وجهدها الحديث . بيد انه لم ينجح ان يملك الى غرضه هذا سبيل الثورة بل سبيل التحول الدستوري ، وقد كان لموقف الملك تكثور اثبات لما رفض اعلان الاحكام العرفية اثر في خطة موسوليني هذه ، فبقيت ايطاليا مملكة دستورية واحتفيظ بمجلس النواب والشيوخ وادرجت سبل التحول الى النظام الفاشي في اربعة قوانين اصدرها البرلمان

اما الاول فشمس قانون الانتخاب وقد صدر في سنة ١٩٢٣ ثم عدل في سنة ١٩٢٨ وبمقتضاه تعتبر ايطاليا بأسرها دائرة انتخابية واحدة . فيضع المجلس الفاشي الاعلى قائمة تحتوي على اربعمئة اسم من اسماء تعرض عليه . ثم تداع هذه القائمة وللتاخيرين ان يقبلوها أو يرفضوها جملة واحدة . فاذا رفضها الناخبون وهو غير محتمل ، تعرض قائمة جديدة وتعرض على الناخبين . وقد ثبت من الانتخابات التي حوت في سنتي ١٩٢٩ و ١٩٣٤ ان ٩٠ في المائة من الناخبين في الانتخاب الاول و ٩٦ منهم في الانتخاب الثاني وافقوا على القائمة الاولى التي عرضها المجلس الفاشي الاعلى عليهم . وعلى ذلك يمكننا ان نقول انه دام النظام الفاشي قائماً في ايطاليا فالمجلس الفاشي الاعلى يعين بالتصمل اعضاء مجلس النواب . ومجلس الشيوخ مؤلف من امراء البيت الملكي واعضاء آخرين يعينهم الملك لمدة الحياة من رجال نخبوا من الاربعين وامتازوا في ناحية من نواحي الخدمة العامة . وليس ثمة حد لعدد الشيوخ فستطيع الحكومة ان تزيد عددهم اذا شاءت ومتى شاءت ولكن الضرورة لم تقتض هذه الزيادة حتى الآن

اما المجلس الفاشي الاعلى فتؤلف (اولاً) من اربعة اعضاء يقفون فيه مدى الحياة وهم القواد الفاشيون الاربعة الذين تقدموا للصفوف في الزحف على روما في اكتوبر سنة ١٩٢٢ (ثانياً) من رجال يشغلون مناصب كبيرة في الدولة مثل بعض الوزراء وسكرتير الحزب الفاشي ورئيس الميليشا الفاشية ورؤساء الاتحادات القومية و(ثالثاً) رجال يعينهم رئيس الدولة جزاء لهم على خدمات عظيمة أدوها للدولة ومدتهم ثلاث سنوات قابلة للتجديد . وليس ثمة حد لعدد هذه الطائفة من الاعضاء وفي القانون الثاني حدد عمل رئيس الوزارة . فهو مسؤول للملك ولا يمكن ان يحمل على الاستقالة اذا اقترح مجلس النواب . عدم الثقة به او بوزارته كما يقع في بريطانيا . بل لا يجوز ان يقترح اقتراح ما في المجلس من دون رضائه . فاذا رفض المجلس أحد مشروعاته حتى له ان يعيد هذا المشروع الى المجلس بعد ثلاثة أشهر وعندئذ يقترح عليه مرة

والتقانون الثالث منح الوزارة الحق ان تحكم بمراسيم . وهذه المراسيم لها قوة القانون مدة ثلاث سنوات بعد صدورها سواء وافق عليها البرلمان أو لم يوافق . اما القانون الرابع فهو القانون الذي وضع اساماً جديدة للحياة ايطاليا الاقتصادية وانشاء ما يعرف «بالدولة النقابية» او «الدولة المندمجة» هو موضوع بحثنا نال